مجلة كلية
الدعوة الإسلامية
مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة
العدد الرابع
1987

- بين داعٍ ومبشّر
- نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام
- الألمان والقرآن
- بعض علماء النفس يعودون إلى رشدهم
- نصوص أجنبية مترجمة

تنبكتو [1]

نافذة على التاريخ والتراث الاسلامي

عبدالحميد الهرامة

تنبكتو مدينة اسلامية عريقة ، تقع في شمال مالي عند الأطراف الجنوبية من الصحراء الكبرى ، ويعتز أهلها بالمأثرة التاريخية القائلة إنها المدينة التي لم يُسجد على أديمها لغير الرحمن [2] ، فقد بناها المسلمون في عهد منسا سليمان عام 610 هـ (1213 م) وعمروها بالمساجد والمدارس التي ظلت تحمل رسالة الاسلام فترة طويلة من الزمن .

إن الرحلة إلى هذه المدينة أشبه ما تكون بقراءة كتاب تراثي مصور يعكس ذكريات الماضي في الأشكال المعمارية للمدينة وفي تراثها المخطوط وملابس أهلها وأشعارهم وأحاديثهم . فلا زال الناس هناك يذكرون أحداث الماضي البعيد بتفاصيلها ، حتى ليذهب بك الظن إلى أن الذاكرة والرواية هي مصادر تاريخهم الطويل .

(1) هذه انطباعات وملاحظات سجلت بعد زيارة وفد جميعة الدعوة الاسلامية إلى مدينة تنبكتو بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف .

(2) انظر تاريخ السودان للسعدي ص 21 .

على أن في المدينة من الآثار الاسلامية ما يساعد الذاكرة على الاحتفاظ بأحداث الماضي وذكرياته البعيدة ، فهنا مسجد « جنغري بير » يحدثك عن المهندس والأديب الأندلسي أبي اسحاق الساحلي الذي بناه في عهد أسقيا محمد على طراز الهندسة « الأندلو افريقية » المميزة ، ولا زالت الأساطير تُروى عن مسجد سيدي يحيى الذي بُنِيَ في عهد المرابطين . وكذلك مسجد « سنكرى » الذي كان في القرن العاشر الهجري ـ السادس عشر الميلادي ـ جامعة كبرى يفد إليها طلاب العلم من كل حدب وصوب ، وعلماءُ هذه الجامعة هم مشاهير أهل العلم في غرب أفريقيا بصفة عامة ؛ من أمثال القاضي العاقب مؤسس الجامعة ، ومحمد بغيغو أستاذها الأشهر، وتلميذه المؤرخ والفقيه الشهير أحمد بابا التنبكتي صاحب نيل الابتهاج ، وكفاية المحتاج ، ومرآة التعريف[3] وغيرها من المؤلفات النفيسة .

● مركز أحمد بابا المودائي : ـ

واعترافاً بفضل هذا العالم الجليل وحبه المعهود لبلاده تنبكتو سمي المركز الوحيد للوثائق والمخطوطات باسمه ، فكان أبرز معالم المدينة .

يضم هذا المركز ما يزيد عن ثلاثة آلاف مخطوط نسخت بمختلف الخطوط اليدوية (الأندلسي ، السوداني ، الصحراوي ، المغربي ، والمشرقي) والباحثون في هذا المركز يقفون الزائر على نماذج من هذه الخطوط حتى يتبين من خلالها طبيعة الخصائص المميزة لكل نوع منها ، ويعود تاريخ نسخ أقدم مخطوطات المركز وهي « الأحكام الشرعية » لعبد الحق الأزدي إلى السنة الأولى من المائة الهجرية السابعة .

وتتميز كمية المخطوطات والوثائق في المركز ـ كما ذكر لنا بعض الأخوة الباحثين ـ باطراد الزيادة ، وذلك لاعتمادهم في تزويد المحتويات على المنقبين وهم فئة من الشباب المثقف تجوب الصحارى والقرى باحثةً عن المخطوطات بغية تزويد المركز بها شراء أو تصويراً .

وقد أعد المركز فهرساً لمحتوياته في مجلد واحد مرقون على الآلة الكاتبة يضم

---

(3) توجد نسخ مطبوعة أو مخطوطة من الكتابين الأول والثاني ونسخة مخطوطة من الكتاب الثالث بمركز أحمد بابا تحت رقم 229 على أن مؤلفات التنبكتي تزيد عن ثلاثين مؤلفاً .

مجموعة كبيرة من تلك المحتويات .

مخطوطات التاريخ والتراجم : -

لقد شدت انتباهنا في مركز أحمد بابا وفرة المصادر التاريخية لعلماء من السودان الغربي ، من أمثال عبد الرحمن السعدي وكتابه تاريخ السودان ، وأحمد بابا السوداني ومؤلفاته في التراجم ، وأحمد بن أبي الأعراف وكتابه « إزالة الريب والتفريط في ذكر علماء الصحراء والتكرور والشنقيط » والكرمي وتاريخه الفتاش ، وتاريخ أوران وتودن وغيرها من كتب التاريخ والتراجم التي تدل على مبلغ اهتمام القوم بتراجم أعلامهم وتسجيل آثارهم .

لقد أضحى التأليف في التراجم والتاريخ ميزة ظاهرة للعلماء والمؤرخين بغرب افريقيا بصفة عامة ، فألفوا الفهارس والكتب في العلماء ومشاهير الرجال والأحداث ، ولم يكد التأليف في هذا المجال ينقطع حتى في خضون هذا القرن الذي نعيشه ، حيث طالعتنا بعض الصحف في مقابلة مع الشيخ الحاج محمد مرحبا مفتي مدينة « بوبو جولاسو » بفولتا العليا أنه انتهى من تأليفه لكتاب « فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان » سنة 1969[4] .

المكتبات الخاصة

تحظى تنبكتو ومعها معظم بلدان غرب افريقيا بالمكتبات الخطية التي تمتلكها أسر أو أفراد من العلماء ، حتى ليمكن القول بأنها تمثل الرصيد الحقيقي من التراث الاسلامي والعربي في هذه البقاع .

وباستعراض فهارس المخطوطات لبعض أولئك العلماء يتبين أنها تحتوي النفائس والنوادر ، وأنها تحتاج إلى جهد مكثف في سبيل حفظها في مراكز علمية وجمعها بالشراء أو التصوير .

ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى مكتبة أسرة أبي الأعراف في تنبكتو ومكتبة الأستاذ بوبو هاما النيجري التي تحتوي حتى عام 1974 على أكثر من ألفين وخمسمائة مخطوط[5] ، ولعل أغلب مخطوطات موريتانيا التي تزيد عن مائة ألف مخطوط ما

(4) انظر جريدة الفجر الجديد العدد 455 سنة 1974 ص 5 .

(5) المصدر السابق ص 5 .

زالت في بيوتات الأسر في المدن والبوادي والقرى[6] ، وليست محتويات متحف جوس ومكتبة لوجار في نيجيريا إلاَّ جانباً محدوداً أمام مكتبات الأفراد والأسر ذات التاريخ العلمي في نيجيريا[7] ، وهذا القول ينصرف إلى مكتبات الأفراد في السنغال وغينيا والنيجر وغيرها من بلدان غرب ووسط وشمال افريقيا .

وقد اختيرت قائمة لبعض مكتبات الأفراد بمدينة « قاو » المالية نموذجاً لهذا النوع من المكتبات المهمة ، وإن أخذ عليها قصور التعريف بالمؤلف واختصار نسبه اختصاراً مخلاً ، واحتمال الخطأ والتصحيف في كتابة عنوان المخطوط كما يلاحظ من عدم التزام السجعة .

فهرس المكتبة[8]:

1 - نور الألباب في أخبار من ذهب من العلماء	لعلي بن عبد الله
2 - سوق الصادقين إلى حضرة القدس	لعثمان بن محمد
3 - سوق الأمة إلى اتباع السنة	لعثمان بن محمد
4 - روض الجنان في ذكر علماء سنغاي	لمحمد بن عثمان
5 - اتباع السنة وترك البدع	لعثمان بن محمد
6 - أخبار البلاد السودانية والهوسية	لعبد القادر بن مصطفى
7 - موضوعات السودان	لعبد الرحمن بن أحمد
8 - لباب المدخل في آداب أهل الله	لعبد الله بن محمد
9 - مركز الأصول في فن علم الأصول	لمحمد بن صديق
10 - منابع الزلال في علم البيان	لمفلح بن محمد
11 - ضياء السياسة والفتاوى	لسيد محمد بن المختار
12 - مطية الزاد إلى الميعاد	لعبد الله بن محمد
13 - ضبط الملتقطات في أخبار الفلان	لمحمد بن عبد الله
14 - مرتع الأذهان لمن يريد لغة الفلان	لجنيد بن عبد الله

(6) انظر مجلة العربي العدد 221 سنة 1977 والعمل الذي قامت به اليونيسكو لفهرسة المكتبات الخطية في موريتانيا .

(7) انظر مجلة الناشر العربي العدد الثاني ص 86 سنة 1984 م .

(8) لمزيد من التوضيح حول هذه المخطوطات يراجع الأخ محمد الطاهر بن نصر/قاو/مالي .

15 - اللؤلؤ المصون في أخبار من دخل بلاد
السنغاي من قبائل العرب — لعبد الله بن محمد

16 - الانصاف في ذكر مسائل ما للخلافة
من وفاء وخلاف — لمحمد بن أبي بكر

17 - القول الموهم في أحكام الزنا بذات المغنم — لمحمد بن عثمان

18 - الهائية في مدح مالي — لمحمد بن أحمد

19 - أحكام النجوم وأشكالها في علم الفلك — لمحمد بن ابراهيم

20 - مسائل ملهمة — لمحمد بن عبد الكريم المغيلي

21 - نوازل الفتاوى — لمحمد بن عبد الكريم المغيلي

22 - قدح الزناد في أمر الجهاد — لعبد الله بن صالح

23 - رسائل إلى أحمد بن أحمد الماسيني — لمحمد بن عثمان

24 - حقائق عن الأحْوال المدنية بالسودان — لابراهيم بن نوح

25 - بث الشوق والشكوى في طلب الوصل — لمحمد بن أحمد

26 - تحذير الاخوان من ادعاء المهدية الموعود بها — لعثمان بن محمد

27 - المسافة السنية في رحلة أبي الهدى — لمجد الدين بن محمد

كما احتوت القائمة على كتب لم تنسب إلى مؤلف معين مثل : ـ

- أنـس الحبيب عند عجز الطبيب
- تيسير المطالب في تعديل الكواكب
- وقاية المؤقت ونكاية المنكت
- علامة النجاح في مبادىء الاصلاح
- نوار السعادة في أصول العبادة
- سراج الثقاب . . .
- تقريب الدلالة في شرح الرسالة
- اللباب في اختصار الجلاب
- شرف الطالب في أسنى المطالب
- هواية السالك في بيان ألفية ابن مالك
- بسط الرموز الخفية . . .
- التخليص في شرح التلخيص

ـ تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب
ـ تحفة الوارد في اختصاص الشرف من قبل الوالد
ـ تحصيل المناقب وتكميل المآرب
ـ طبقات علماء السودان
ـ تحفة الأحباء في من تلقى العلم على يد محمد بن عبد الكريم
ـ بغية المستفيد في أخبار من دخل في « ڤاو » من العلماء
ـ نيل المرام من شيم الكرام

العلاقات الليبية المالية القديمة : ـ

هذا الموضوع مجال بحث متسع لا يمكن الإلمام به في هذه العجالة ؛ ففي بلادنا وفي تنبكتو على وجه الخصوص أناس يشتركون في النسب وفي القبيلة ، وهناك عبر التاريخ علاقات تجارية وثقافية وسياسية عريقة لا زالت تؤكدها الوثائق المخطوطة في تنبكتو وغدامس .

فأكثر تلك العلائق كانت بين هاتين المدينتين ، على أن بعض المكتبات الخاصة ومركز أحمد بابا نفسه يحتفظ ببعض الوثائق التي تدل على مراسلات بينهم وبين يوسف باشا القره مانللي حول مستشرق رحالة تمَّ اغتياله في طريق عودته من تنبكتو .

ثم إن المناسبة تستدعي أن نشير إلى كتاب « رحلات في افريقيا الوسطى إلى تنبكتو وعبر الصحراء إلى مراكش » الذي ألفه في جزأين الرحالة الفرنسي ريني كايلية في النصف الأول من القرن الماضي ؛ لما فيه من صلة بالعلاقات التجارية بين طرابلس وتنبكتو[9] .

● الاحتفالات بالمولد النبوي

تتميز مدينة تنبكتو بطابعها الخاص في الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ؛ فهم يقرأون المدائح النبوية بصورة جماعية في مساجدهم المشهورة ، ويطعمون الطعام في ذكرى المولد والعقيقة .

---

(9) انظر المختار في مراجع تاريخ ليبيا 81/3 .

وتشتهر بينهم أشعار أبي زيد الفازازي ، واسمه عبد الرحمن بن يخلفتن الأندلسي ، بل إن أشعاره في مدح الرسول قد ذاعت في السودان الغربي بكامله حتى لصقت به أسطورة « رسول السودان » على حد تعبير بروكلمان [10]، وطبعت مدائحه في مصر مراراً وفي نيجيريا ولبنان وخُمست وشُرحت .

فمن أكثرها تداولاً في السودان الغربي :-

1 - ديوان الوسائل المتقبلة في مدح النبي - ﷺ - للفازازي وتخميسه لأبي بكر بن المهيب من صحراء المغرب .

2 - النوافح العطرية في حل ألفاظ عشرينية الفازازي ، من تأليف محمد الداغري .

3 - القصائد العشريات في الزهد للفازازي مع شرح عباراتها المجازية للغمراوي .

ويدل اهتمام علماء السودان الغربي بشرح وتخميس هذه الأشعار على المكانة التي يحظى بها الفازازي وأدبه في هذه الربوع .

ولعله من شجون الحديث أن أُشير إلى أن مركز أحمد بابا التنبكتي يحتوي على شرح غير مطبوع لعشرينيات الفازازي ألفه العنبري الكشناوي ويظن أنه من أكبر شروح العشرينيات .

إنَّ الحديث عن تنبكتو لا ينفصل عن الحديث عن الاسلام والعروبة في افريقيا الغربية ؛ فهم قوم يعتزون بانتمائهم إلى أمة الاسلام بل يعتزون بانتمائهم إلى الناطقين بلغة القرآن. وعلى العالم الاسلامي أن ينتشلهم من الفقر والتخلف وأن ينتزعهم من مؤامرات التنصير والتغريب والاستلاب الفكري .

وأختم هذه العجالة بأبيات من قصيدة مطولة تقع في ثلاثة وخمسين بيتاً ، ألفها والد سينيغالي أرسل ابنه إلى البلاد العربية ليتعلم الاسلام والعربية فواجهته بعض الصعوبات . . . وهو في هذه القصيدة التي - إن فقدت بعض الخصائص الفنية فهي لم تفقد الروح الصادقة والعاطفة النبيلة - يصور اهتمامه بتعليم ابنه

(10) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان الطبعة المترجمة 132/5 .
(وانظر Lippert, MSOS, I I I, 3, 203. FF) .

الثقافة الاسلامية العربية برغم علمه المسبق بما ينتظره من مستقبل قاسٍ في دولة لا تعترف بالعربية في دوائرها الرسمية ومناهجها التعليمية : ـ

منـذ لاحت نعـومـة الأظفـار بـاسـوداد واغـدودنت أشعـاري
كنت للضـاد والعـروبـة عبـداً بـل وللدين بـاذلاً أعـمـاري

إلى أن يقول بعد تخرجه من المدارس العربية الأهلية : ـ

قلت يـا والـدي مـدارسُ أهـلي خـرَّجتني فـما يكـون خيـاري
فـاتني الآن كـل شيء فهـل لي في بـلادي وظـيـفـة الأحـرار

ويظل الحوار بين الوالد وولده حول الصعوبات التي يلاقيها في سبيل مواصلة دراسته بالبلاد العربية ، على أن الأب يصر على ضرورة مواصلة الدراسة :

قـال واصل تعلماً سـوف تحـظى بـالمـنى .... الـخ
هل سأسعى مغـامراً دون مـالٍ دون إذن فـإن ذاك انـتحـاري
قـال جـرِّبْ لكـل فـردٍ تقيٍّ خـطه في النجـاح بـالاصـرار

ثم ينتهي إلى القول : ـ

لغـة الضـاد من ذويهـا تعـاني كـلَّ ضيم وجـفـوة أو حصـار
هـذه جـامعـاتهم أُغـلقت في وجه ذا الأسود الفقير الساري

ولئن قُبل هذا الطالب بكلية التربية جامعة الفاتح فإن الملايين من أمثاله ينتظرون من الدول العربية ومنظمة العالم الاسلامي أن تعمل على فتح جامعات تُعنى بالثقافة العربية الاسلامية ليثبتوا في حصونهم المتقدمة مدافعين بالعمل عن رسالة الاسلام الخالدة .